شعر الوقوف على الأطلال

من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

- ٨ -

تطور شعر الوقوف على الأطلال في العصر العباسي

بدأت حياة العرب تتغير شيئاً فشيئاً منذ أوائل القرن الثاني للهجرة في الأمصار الإسلامية الجديدة التي أوطنوها واستقروا فيها . حتى إذا انتصف هذا القرن ، واستتب الأمر لبني العباس في بغداد ، أخذت آثار هذا التغير تظهر في طريقة تفكير الناس ، وفي إنتاجهم في الأدب والشعر . وقد تطورت تبعاً لذلك كل أنماط الأدب وأغراض الشعر المعروفة . ونريد ها هنا أن نعرف ما حل بشعر الوقوف على الأطلال في خلال هذا الانقلاب الفكري . وسندرس تطور هذا الشعر عند شعراء القرن الثاني أولاً ، ولا سيما في شعر أبي نواس منهم . ثم ندرسه عند شعراء القرن الثالث ، ولا سيما في شعر أبي تمّام والبحتري منهم .

١ — شعراء القرن الثاني : أبو نواس

كان شعراء هذا القرن أصحاب تجديد وثورة جريئة على القديم . فقد حاولوا ابتداع مذهب في الشعر جديد يتفق وواقع الحياة المادية والمعنوية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التي كانوا يحيونها في بغداد في النصف الثاني من هذا القرن . وزعيم هذا المذهب وخير من يمثل آراء أصحابه وطريقتهم وخصائص أشعارهم هو أبو نواس بلا ريب . ولذلك سنقتصر على دراسة تطور شعر الوقوف على الأطلال عنده وحده دون أصحابه ، لأنه خير من يمثلهم كما قلنا ، ولأن أصحابه هؤلاء لم يقولوا شعراً له شأن في المنازل والديار .

* * *

لأبي نواس شأن عجيب في شعر الوقوف على الأطلال . فهذا الشعر عنده ينقسم إلى قسمين كبيرين ، يباين أحدهما الآخر كل التباين . قسم يقف فيه على المنازل والديار ، ويبكيها على طريقة الشعراء القدامى . وقسم آخر ينهج فيه نهجاً جديداً ، ينعي فيه على الديار وأطلالها ، وعلى من يقول فيها شعراً . ويدعو إلى تركها وإهمالها . قال ابن رشيق في كتاب العمدة وهو يشير إلى ذلك : « وزعموا أن أول من فتح هذا الباب ، وفتق هذا المعنى أبو نواس بقوله :

لا تبكِ ليلى ، ولا تطربْ إلى هندِ   واشربْ على الوردْ من حمراء كالوَرْدِ (١)

وقد استقرينا شعر أبي نواس في الوقوف على الأطلال ، وصنفناه حسب قسميه المذكورين ، فانكشفت لنا الحقيقة التالية : يسلك أبو نواس الطريقة الأولى في افتتاح أماديحه وأهاجيه الكبرى ، أي في أغراض الشعر العامة القديمة . أما الطريقة الثانية فيسلكها في خمرياته وما إليها من قصائده التي يقولها عابثاً في لهوه . فهو إذاً رجل ذو ذكاء ودهاء ، يراعي الذوق العامّ السائد في عصره حين يقول الشعر في الأغراض القديمة التقليدية لينفق شعره وينال إعجاب الناس . حتى إذا خلا إلى شيطانه وكأسه أطلق نفسه على سجيتها ، وسلك الطريقة الثانية .

---

(١) العمدة ١/٢٠٣ ، وديوان أبي نواس ٢٧ .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وليس في القسم الأول من شعر أبي نواس في الوقوف على الأطلال كبير غناء ، فهو يحذو فيه حذو الشعراء الكبار في العصر الأموي ، ويردد معانيهم ، ويكرر نغماتهم دون أن يبلغ شأوهم فيها .

ولعل أبا نواس كان مضطراً إلى قول الشعر في هذا القسم اضطراراً لا يجد له دفعاً ، ولا يرى منه مهرباً . وهو يصرح بذلك ، ويقول (١) :

أعِرْ شعرَكَ الأطلالَ والدِّمَنَ القفرا فقد طال ما أزرى به نَعْتُك الخمرا
دعاني إلى وصف الطلول مُسَلَّطٌ تضيق ذراعي أن أجوز له أمرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعةً وإن كنت قد جشمتني مركباً وعرا

لقد سجنه الخليفة على استهتاره بالخمر ، وأخذ عليه ألا يذكرها في شعره . فجاهر بأن وصفه الأطلال والقفر إنما هو من خشية الإمام ، وإلا فهو عنده فراغ وجهل (٢) .

فهل نفهم من قول أبي نواس هذا أنه أراد الانطلاق من ربقة القديم فرُدَّ عن ذلك ردًّا ؟ يبدو لنا أن أبا نواس كان مضطراً إلى أن يسير في طريق القدماء ، وكان كلما زيّن له شيطانه الزيغ عن هذه الطريق والاتجاه في الطريق الأخرى رُدَّ عن ذلك ردًّا عنيفاً ، ردّه الخليفة أو أمير المؤمنين كما يقول .

* * *

وأما في القسم الثاني فأبو نواس يظهر لنا رجلاً مشغوفاً بالخمر ، مزوراً عن الديار والأطلال ، يذمها ليخلصَ من ذمها إلى مدح الخمر ووصفها وصفَ مغرمٍ بها غراماً شديداً . يقول أبو نواس (٣) :

---

(١) ديوان أبي نواس ٢١ .
(٢) وانظر العمدة ١/٢٠٤ .
(٣) ديوان أبي نواس ١٤٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لستُ لدارٍ عفتْ بوصّافِ ولا على ربعها بوقّافِ
ولا أسلّي الهموم في غسق الليل بحادٍ بالليل عسّاف
لكن بوجه الحبيب أشربها بين ندامى وبين ألاف
من قهوة كالمقيق صافيـة عاديّة العمر ذات أسلاف

والقاعدة العامة عند أبي نواس ، في هذا القسم ، هي أن ينعى على الذين يقفون على الديار والأطلال ، ويبكون فيها ، ويسخر منهم سخرية مرة لاذعة ، يتهم فيها ذوقهم وعقولهم . يقول (١) :

عاج الشقيُّ على رسم يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلدِ
يبكي على طلل الماضين من أسدٍ لا درَّ درك ، قل لي : من بنو أسدٍ ؟

. . . .

كم بين ناعتِ خمرٍ في دساكرها وبين باكٍ على نؤيٍ ومُنْتَضَدِ
دَعْ ذا عدمتك واشربها معتّقةً صفراءَ تفرق بين الروح والجسدِ

وإذا تساءلنا عن السبب الذي يدفع أبا نواس إلى موقفه هذا من الديار والأطلال ومن الباكين عليها ، وجدنا هذا السبب عند أبي نواس نفسه . وهو يبينه لنا في تفصيل ووضوح يغنيانا عن كل افتراض ، ويريحاننا من كل بحث وعناء . يقول (٢) .

مالي بدار خلتْ من أهلها شُغُلُ ولا شجاني لها شخصٌ ولا طَلَلُ
ولا رسوم ، ولا أبكي لمنزلة للأهل عنها وللجيران مُنْتَقَلُ
ولا قطعت على حَرْفٍ مذكّرة في مرفقيها إذا استعرضتَها فَتَلُ
بيداءَ مقفرةً يوماً فأنعتَها ولا سرى بي فأحكيه بها جملُ

. . . .

(١) ديوان أبي نواس ٤٦ ـ ٤٧ .
(٢) ديوان أبي نواس ٦٩٨ .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا الحَزْنُ مني برأي العين أعرفه ... وليس يعرفني سهلٌ ولا جبلُ
لا أنعت الروضَ إلا ما رأيت به ... قصراً منيفاً عليه النخل مشتملُ

هذا هو السبب في موقف أبي نواس من الديار والأطلال ومن الباكين عليها ، يعرضه علينا عرضاً مسهباً واضحاً : إنه يحيا في بغداد حياة تختلف كل الاختلاف عن حياة الأعراب في الصحراء .

وإذا كان الأمر كذلك فمن حق أبي نواس إذاً أن يبعد عن حياتهم ، ويهجر صورها في شعره إلى صور أخرى يراها بعينيه في البيئة التي يحيا فيها ، ويضطرب في مجالاتها ، ولا يريد أن يقول شعراً يصف فيه شيئاً على السماع كما يقول في بعض شعره ، وهو قوله (١) :

صفة الطلول بلاغـة القِدْمِ ... فاجعل صفاتك لابنـة الكَرمِ
لا تُخْدَعَنْ عن التي جُعِلَتْ ... سقم الصحيح وصحـة السقمِ

. . . .

تصف الطلول على السماع بها ... أفذو العيـان كأنت في الحكمِ
وإذا وصفت الشيءَ متبعـاً ... لم تخـل من غلط ومن وهمِ

وفي الحق أن يصف كل إنسان ما يرى . « وصفـة الإنسان ما رأى يكون لا شك أصوب من صفته ما لم يرَ . وتشبيه ما عاين بما عاين أفضل من تشبيه ما أبصر بما لم يبصر » (٢) .

لقد تطورت شروط الحياة العامة ، وتغيرت أنماطها ومظاهرها ، في المجتمع العربي الإسلامي على عهد العباسيين ، وضعف شأن العنصر العربي والقبائل العربية المعروفة ، وغلبت العناصر المسلمة الأخرى من غير العرب . وبَعُدَ العهد بحياة البادية ، ونسيها معظم العرب ، وانقطعوا في الأمصار التي أوطنوها

---

(١) ديوان أبي نواس ٥٧ ـ ٥٨ .
(٢) العمدة ٢/٢٣٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن البادية التي نجعوا منها ، وكذلك انقطعوا عن أسبابها وأجوائها ، إلا ما كانوا يقرؤون من أخبارها وأشعارها . وبعد هذا ، فلا معنى لذكر الحضري الديار إلا مجازاً ، لأن الحاضرة لاتنسفها الرياح ، ولا يمحوها المطر ، إلا أن يكون ذلك بعد زمان طويل لايمكن أن يعيشه أحد من أهل الجيل (١) » . وهذا مافعله حقاً أبو نواس وأضرابه من المحدثين . لقد ذكروا الديار والأطلال مجازاً لا عياناً . كما ذكروا الإبل ، ووصفوا المفاوز والقفار على العادة المتادة اقتداء بمسلك الشعراء الأقدمين ، واتباعاً لما ألفته طباع الناس معهم . ولعل أحدهم « لم يركب جملاً قط ، ولا رأى ما وراء الجبانة (٢) » .

ونرى أن أبا نواس وأضرابه كانوا على حق في موقفهم من القديم وابتداع مذهبهم الجديد ، لأن ذلك ناشئ من روح الحياة ، مستمد من طبيعة الأشياء ، يؤيده المنطق ، ويفرضه الواقع فرضاً . ولم يعدم مذهبهم الجديد بعض المعجبين من النقاد أيضاً . فقد ذكر ابن رشيق أن قول أبي نواس في أول قصيدة له :

صفة الطلول بلاغة القِدَمِ   فاجعل صفاتِكَ لابنة الكرم

هو أفضل إبتداء صنعه شاعر من القدماء والمحدثين عند الحاتمي ، فيما روي عن بعض أشياخه (٣) .

* * *

(١) العمدة ١/١٩٩ .
(٢) العمدة ١/١٩٨ .
(٣) العمدة ١/٢٠٤ .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ونتساءل عن السبب الذي دفع بالخليفة إلى زجر الشاعر عن مذهبه الجديد ، واضطراره إلى سلوك مسلك القدماء . ثم نتساءل عن السبب الذي جعل الناس ، في عصر أبي نواس وبعد عصره ، يزورّون عنه ، وينفرون من مذهبه الجديد .

ويغنينا أبو نواس هنا أيضاً عن كل افتراض ، ويجنبنا كل بحث وعناء ، فيشهد على نفسه في شعره ، ويدلنا على السبب في كل ذلك . ويتجلى لنا هذا السبب في الموقف السلبي الساخر العنيف الذي وقفه أبو نواس من القديم والقدماء . إننا نحس في أعماقنا ، عندما نقرأ شعره ، أنه لم يكن يجدد ، ويدعو للتجديد ، لوجه التجديد ، وإنما يفعل ذلك ازدراء للقديم وكرهاً له . لقد كان مذهبه أو شعره « رفضاً للقديم في كل شيء ، وكلفاً بالجديد في كل شيء » كما يقول الدكتور طه حسين (١) . يقول أبو نواس (٢) :

دع الأطلال تسفيها الجَنوبُ وتبكي عهد جدتها الخطوبُ
وخل لراكب الوجناء أرضاً تحث بها النجيبة والنجيب
ولا تأخذ من الأعراب لهواً ولا عيشاً ، فعيشهم جديب

ومثل هذه الأبيات وكثير من أمثالها تظهر لنا ازدراء أبي نواس للقديم والقدماء .

ويريد الدكتور طه حسين أن يصبغ هذا السبب بصبغة سياسية في قوله في أحد أحاديث الأربعاء : « على أن هذا المذهب الجديد ، على حسنه واستقامته ، وعلى أن أبا نواس موفق فيه ، لم يسلم من أشياء تمكننا من أن نفهم بغض الناس له ، ونسيهم عليه ، فهو ليس مذهباً شعرياً فحسب ، وإنما هو مذهب سياسي أيضاً . يذم القديم ، لا لأنه قديم ، بل لأنه قديم ولأنه عربي ، ويمدح الحديث ، لا لأنه حديث ، بل لأنه حديث ولأنه فارسي .

(١) حديث الأربعاء ٢/١٢٤ .
(٢) ديوان أبي نواس ١١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهو إذاً مذهب تفضيل الفرس على العرب ، مذهب الشعوبية المشهور . ومن هنا نفهم سخط كثير من العرب وأنصار العربية على هذا المذهب الجديد »[١] .

والحقيقة أننا نلمس آثار الشعوبية في شعر أبي نواس ولا سيما في خمرياته التي وقفها على ذم القديم والقدماء ، والدعوة إلى مذهبه الجديد ، بأسلوب فيه سخرية مرة وازدراء عنيف للقديم . وقد عرف القـــدماء ذلك من أبي نواس . فقال ابن رشيق عنه في العمدة : « وكان شعوبي اللسان . فما أدري ما وراء ذلك . وإن في اللسان وكثرة ولوعه بالشيء لشاهداً عدلاً لاترد شهادته[٢] » .

ولذلك ثقل أبو نواس على الناس ، وعلى أكثر العلماء والنقاد ، ونفرهم من مذهبه هذا الجديد . والناس ، مهما كانت أحوالهم ، لايرضون أن يسخر بهم أحد . ولو اتبع أبو نواس ، في الدعوة إلى مذهبه الجديد ، طريقة أخرى غير طريقة السخرية بالقديم والزراية عليه ، لكان له ولمذهبه شأن غير الشأن الذي انتهى إليه ، ولرضي عنه الناس وأقبلوا عليه معجبين .

ولقد تخلى أبو نواس مرة عن موقفه السلبي الساخر في شعره ، واتخذ موقفاً إيجابياً حكيماً في خمرية من خمرياته ، فوفق توفيقاً كبيراً ، وأتى بشيء جديد ، يمكن لنا أن نقول فيه : إنه الجديد الحق الذي كان ينبغي لأبي نواس أن يسعى إليه ، وأن يحققه في مذهبه الجديد . قال[٣] :

ودار ندامى عطّلوها وأدلجوا ... بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ
مساحب من جر الزقاق على الثرى ... وأضغاثُ ريحان : جنيّ ويابس
حبست بها صحبي ، فجددت عهدهم ... وإني على أمثال تلك لحابس

(١) حديث الأربعاء ٢/١١٣ ـ ١١٤ .
(٢) العمدة ١/٢٠٤ .
(٣) ديوان أبي نواس ٣٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم أدر منهم غير ما شهدت به بشرقي ساباط الديار البسابس
أقمنا بها يوماً ويومين بعـــده ويوماً له يوم الترحل خامس
تدار علينا الكأس في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس

هذه آثار الديار التي وقف عليها أبو نواس هنا : آثار جر الزقاق ، وبقايا أضغاث الريحان . إنها أطلال الحانة ! وقد أعجب العلماء والنقاد في القرن الثالث بهذه القصيدة . جاء في المثل السائر لابن الأثير بشأن هـذه الأبيات : « ومما انتهى إليَّ من أخبار ابن المزرع قال : سمعت الجاحظ يقول : لا أعرف شعراً يفضل هذه الأبيات التي لأبي نواس . ولقد أنشدتها أبا شعيب القَلاَّل ، فقال : والله يا أبا عثمان ، إن هذا لهو الشعر ، ولو نُقِرَ لَطَنَّ ! فقلت له : ويحك ، ما تفارق عمل الجرار والخزف . ولعمري ، إن الجاحظ عرف فوصف ، وخَبِرَ فشكر . والذي ذكره هو الحق (١) » .

ولا غرابة في ذلك . فقد تخلى أبو نواس عن سخريته من القديم وازدرائه له في هذه القصيدة كما نرى ، وأخفى ميله للفرس وإعجابه بهم ، وأخلص لفنه ومذهبه ، فوفق في ذلك كل التوفيق ، وحاز إعجاب النقاد . ولو لزم أبو نواس هذه الطريقة ، وثبت عليها في مذهبه ، وعالج بها التجديد في شعره ، لنفض القديم نفضاً ، ولضمن لمذهبه الفوز والبقاء . ولكنه لم يفعل ذلك ، واختار سبيل المجابهة والهجوم ، فانصرف عنه الناس ، واندثر من بعده مذهبه الجديد .

٢ ـ شعراء القرن الثالث : أبو تمام والبحتري .

كانت لشعراء القرن الثالث مدرسة خاصة في الشعر ، تخالف في أصولها ومظاهرها مدرسة التجديد التي تزعمها أبو نواس في القرن الثاني . لزمت

(١) المثل السائر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه المدرسة جانب الاعتدال والاتزان في شعرها ، وسلكت سبيلاً وسطاً بين القديم والجديد . فلم تكره القديم كما كرهه أبو نواس وأضرابه ، بل كانت تحبه وتحب قراءته ، ولكنها في الوقت نفسه لم تخضع لهذا القديم خضوعاً تاماً . وكانت النتيجة أن هذه المدرسة اتبعت القديم في أشياء ، وأحدثت لنفسها أشياء ، ومزجت القديم الذي اتبعته بالحديث الذي أحدثته مزجاً بارعاً جميلاً .

وأشهر شعراء هذه المدرسة في القرن الثالث هما الشاعران الطائيان أبو تمام أوس بن حبيب وأبو عبادة البحتري . وقد قالا في الوقوف على الأطلال شعراً كثيراً ، ولا سيما البحتري الذي فاق من جاء قبله ومن جاء بعده من الشعراء في الإكثار من شعر الوقوف على الأطلال . وسنعرض لهذا الشعر في الصفحات التالية ، ونرى ما طرأ عليه من تطور وتغير .

* * *

عاش هذان الشاعران في بغداد وغيرها من الحواضر العربية ، وألفا الحياة في قصور هذه المدن وحدائقها ، وشُغلا بالجمالات التي يسرتها لهما حياة الحضارة والترف فيها . كما قرأا واطّلعا على العلوم والثقافات المختلفة التي شاعت في عصرهما ، فبدا أثرها في شعرهما ، ونتج عن ذلك كله أن هذين الشاعرين قد نسيا حياة البادية وصورها الحقيقية ، كما نسيها غيرهما من الناس . وإذا ما رأينا في شعرهما في الوقوف على الأطلال آثاراً لحياة البادية وصوراً منها فنحن نرى ونعرف أنها آثار وصور منقولة من الشعر ، لا أصالة فيها ، بل هي أصداء مرددة .

وكان من أثر ذلك أيضاً غياب النزعة المادية عن شعرهما في الوقوف على الأطلال . فأبو تمام والبحتري لا يكادان يذكران مواقع الديار ، وبقاياها ، والوحوش التي تألفها ، كما كان يفعل القدماء من الجاهليين والإسلاميين ، إلا في أحوال نادرة جداً ، وفي إشارات سريعة خاطفة . وعلى هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم يبق في شعرهما من معاني الوقوف على الأطلال المادية المعروفة إلا بقايا ضئيلة قليلة، لا تكاد تبين بين المعاني الأخرى التي أكثروا القول فيها، وداروا حولها كالدعاء للديار، ووصف حالة الشاعر النفسية، ولا سيما البكاء، ومشاركة الأصحاب الوجدانية، ولا سيما اللوم والعذل والعتاب على الوقوف بالديار.

ونلاحظ، على العكس من ذلك، ظهور النزعة المعنوية العقلية ظهوراً واضحاً في شعر الوقوف على الأطلال عند أبي تمام والبحتري. وهذا أثر من آثار العصر الذي نشأا فيه، والبيئة التي عاشا فيها. فقد كان القرن الثالث كما نعرف عصرَ حضارة وعلوم وثقافات. فأبو تمام والبحتري إذا وصفا الديار، وقلما يفعلان ذلك، فإنهما لا يصفانها وصفاً تؤديه إليها حواسها، وإنما يرسمان لها صوراً تولدها المخيلة الشعرية دون أن تستعين بحاسة الإبصار. يقول أبو تمام[1]:

قِفوا جَدِّدوا من عهدكم بالمعاهدِ وإن هي لم تسمعْ لِنِشدان ناشدِ
لقد أطرق الربع المحيل لفقدهم وبَيْنِيهم إطراقَ ثكلان فاقدِ

فهو يتخيل الربع حزيناً محزناً، قد أطرق كمن أصيب بفقد عزيز. وأما ألوان الربع الحائلة، وأما بقاياه العافية، فلا يعرف عنها شيئاً، لأنه لا يعرفها، ولم يعاينها برأي العين منه.

وعوامل تخريب الديار في شعر هذين الشاعرين تبعد شيئاً فشيئاً عن عوارض الطبيعة كالرياح والأمطار، وتقرب من العوارض المعنوية كصرف النوى مثلاً. يقول أبو تمام[2]:

دار سقاها بعد سكانها صَرْفُ النوى من سحه الناقع
فلا تلوما ذا الهوى، إنها ليست بدمع حَنَّةُ النازع

(١) ديوان أبي تمام ٢/٦٨.
(٢) ديوان أبي تمام ٢/٣٥١.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أرأيتم كيف يسقي صرف النوى الدار من سمه الناقع ؟ إن هذا من توليد مخيلة مثقفة مصقولة يعيش صاحبها في القرن الثالث الهجري . إنه يريد أن تقادم الزمن قد أخرب الدار . ولكنه لا يقول هذا هكذا ، وإنما يقوله كما رأينا . وهذه طريقة لأبي تمام معروفة في شعره . فهو يبعد في الاستعارة عن الواقع المألوف . وهذا أثر من ثقافة عصره كما قلنا آنفاً .

والبحتري في القرن الثالث يشبه جريراً في القرن الأول بنزعة تقديم الغزل على شعر الوقوف على الأطلال في بعض الأحيان . فهو يقول (١) :

شَدَّ ما أغرمت ظلومُ بهجري بعد وجدي بها وغلة صدري
ولَعَمْري ، يمينَ برٍّ ، وحَسْبي في الهوى أن أقول فيه : لعمري

وبعـــد غزل ناعم ، غنّي بالنغم ، يعود البحتري إلى الديار ، ويقف عليها قائلاً :

قد وقفنا على الديار ، وفي الركـــب حَرِيبٌ من الغرام ومُثْري
ولوَ انّي أطيـــع أمرَ حلمي كان شتى أمرُ الديار وأمري

ولكن هذا ، زيادة على تأخيره عن الغزل ، ليس شعراً في الديار والأطلال كما نعهد هذا الشعر . وإنما هو غزل قد مزجه البحتري بشعر الوقوف على الأطلال مزجاً . وليس فيه من هذا الشعر شيء سوى ذكر كلمة الديار .

وقد سار أبو تمام والبحتري في كل شعرهما على هذه الطريقة في مزج الغزل بشعر الوقوف على الأطلال . يقول أبو تمام مثلاً (٢) :

إن عهـــداً لو تعلمان ذميا أن تناما عن ليلتي أو تنيما

---

(١) ديوان البحتري ٢/٩٧٠ .
(٢) ديوان أبي تمام ٣/٢٢٢ – ٢٢٣ .

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كنت أرعى البدور ، حتى إذا ما فارقوني أمسيت أرعى النجوما
قد مررنا بالدار وهي خلاءٌ فبكينا طلولهـــا والرسوما
وسألنا ربوعهـا ، فانصرفنا بسقام ، وما سألنا حكيما
أصبحت روضةُ الشباب هشيما وغدت ريحُه البليلُ سَموما
شُعْلَةٌ في المفارق استودعتْني في صميم الفؤاد ثكلاً صميما

وهذا غزل جديد كما نرى ، يمزج فيه أبو تمام فراق الأحباب والمرور بالدار وبكاء طلولها والحنين إلى أيام الشباب جميعاً مزجاً غريباً . ويقول البحتري (١) :

أطاع عاذلَه في الحب إذ نصحا وكان نشوانَ من سكر الهوى فَصَحَا
فما يهيِّجه نوحُ الحمـــام إذا ناح الحمام على الأغصان أو صَدَحا
ولا تفيضُ على الأظعـــان عبرتُه إذا نأَيْنَ ولو جاوزْنَ مُطَّلَحا
وربما استدعت الأطـــلالُ عبرتَه وشاقه البرقُ من نجد إذا لَمَحا

وهذا أيضاً غزل جديد ، يمزج فيه البحتري أنواع الغزل بعضها ببعض مزجاً غريباً .

وقد ذهب أبو تمام مذهباً أبعد من ذلك ، فحاول أن يمزج شعر الوقوف على الأطلال بشعر المديح أيضاً . فهو يقول في مدح محمد بن عبد الملك الزيات (٢) :

دِنَفٌ بكى آياتِ رَبْعٍ مُدْنَفِ لولا نسيمُ ترابهـــا لم يعرفِ

. . . .

وكأنما استسقى لهن محمـــدٌ فرسومُهن من الحيا في زُخرفِ
سأل السِّماكَ فجادها بحيائـــه منه بوبل ذي وميضٍ أوْطفِ
متعانق الحَوْذانِ ، تنشره الصَّبا خَضِلاً ، وتطويه كطي الرفرفِ
وتَوَى الربيعُ بها ، فليس يُقيلُه عنها تَبيجُ سَمومِ قيظٍ مُنْصِفِ

---

(١) ديوان البحتري ١/٤٤٠ .
(٢) ديوان أبي تمام ٢/٣٩٤ ــ ٣٩٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولست أدري ما موقعُ هذا المدح من نفس محمد بن عبد الملك الزيات الممدوح بهذه الأبيات . على أننا نرى في الأبيات وصفاً جديداً للديار ، إذ يصف الشاعر نباتها وزيتها في الربيع . وهو أثر من آثار المصر والبيئة ، يستعيره أبو تمام من وصف الحدائق والبساتين لوصف الديار وأطلالها . وإلا فالقدماء لم يصفوا الديار إلا بالعفاء والخراب والخلاء من مظاهر الحياة .

وقال أبو تمام أيضاً في وصف الديار وطلولها :

تطل الطلول الدمع في كل منزل ... وتمثل بالصبر الديار المواثلُ
دوارس لم يجف الربيعُ ربوعَها ... ولا مرَّ في أغفالها وهو غافل
فقد سحبت فيها السحاب ذيولها ... وقد أخملت بالنَّوْر فيها الخمائل
ليالي أضللت العزاء وخزلت ... بعقلك أرآم الخدور المقاتل

وليس همُّ أبي تمام هاهنا في وصف الديار وبقاياها ، كما نرى ، وإنما همه في التجنيس وإحكامه في كل بيت من هذه الأبيات . ونرى في الأبيات مع ذلك ميلاً إلى وصف الديار هذا الوصف المبتكر الذي بيناه آنفاً ، وهو وصف أثر الربيع وأمطاره في نباتها وزخرفها .

وقصارى القول في هذا : إننا حين نقرأ شعر أبي تمام والبحتري في الوقوف على الأطلال نجد هذا الشعر قد فقد عندهما أشياء كثيرة من عناصره المقومة له ، وذاب في الغزل المزيج الذي أحدثه هذان الشاعران ، فأضاع استقلاله ، وأصبح بذلك معنى من معاني شعر الغزل ، بعد أن كان نوعاً من أنواعه ، أو مقدمة له تؤدي إليه ، وبعد أن كان الشاعر يبدأ به دائماً حين افتتاح القصيدة .

لقد صار الشعراء المحدثون ، وهم من أهل الحضر ، يذكرون الديار مجازاً ، لا حقيقة وعياناً .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعد فنستطيع الآن ، في نتيجة هذا العرض السريع ، أن نجمل المراحل الكبرى في تطور شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية حتى نهاية القرن الثالث . فقد كانت المرحلة الأولى في شعر الغزلين البداة في القرن الأول ، وذلك باهتمام هؤلاء الشعراء بالحالة النفسية ، ووضعها في المرتبة الأولى بين معاني شعر الوقوف على الأطلال . وكانت المرحلة الثانية في شعر جرير ، في القرن الأول أيضاً ، حين حاول بطريقته مزج شعر الوقوف على الأطلال بشعر الغزل . ثم كانت المرحلة الأخيرة في شعر أبي تمام والبحتري وأضرابهما من شعراء القرن الثالث المحدثين حين امتزج شعر الوقوف على الأطلال عندهم بشعر الغزل ، وذاب فيه ، وأصبح معنى من معانيه ، بعد أن كان نوعاً من أنواعه قائماً بنفسه في أول القصيدة .

الدكتور عزة حسن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net